المحور الرابع

علاقات عمر راسم مع الشخصيات والرجالات في الداخل والخارج

عمر راسم بين نخبة عصره

أ.د. أبو القاسم سعد الله
أستاذ بقسم التاريخ- جامعة لجزائر

يحق لرجل كعمر راسم أن يكون شاهدا على العصر الذي عاش فيه وهو من 1884 إلى 1959م، إنه عصر تغيرت فيه حالة الجزائر من حالة خمود إلى حالة صمود، ومن ثورات في الريف إلى حراك في المدن، ومن نظام استعماري إداري جامد إلى تحولات إستراتيجية جديدة ليس في المغرب العربي فحسب ولكن في المشرق العربي والإسلامي وأوروبا نفسها.

ظهر عمر راسم[1] في الثمانينات من القرن التسع عشر، في عهد حكم لويس تيرمان (1881- 1891) الذي وصف بأنه من أواخر ما عاشته الجزائر من الحكم الاستعماري القائم على القهر والتجهيل المعتمد وفرض الأمن الاستعماري على يد المكاتب العربية العسكرية. إن لويس تيرمان هو الذي جاء بتشريع قانون الأندجينا الذي كان يراد به قهر الأهالي بقوانين استثنائية لا تماثلها ربما إلا قوانين غونتانامو اليوم.

ومن جهة أخرى ففي عهده أنشئت الحالة المدنية التي أراد بها الفرنسيون تفتيت الأنساب وطمس معالم التاريخ، وقد عانى عمر

راسم نفسه من قانون الأهالي عندما اضطهد وحكم عليه بالأشغال الشاقة وصودرت صحافته.

ولكن الحياة مع ذلك سارت إلى الأمام، وانتقل حكم الجزائر أثناء طفولة وشباب عمر راسم إلى فريق آخر هم : جول كامبون Cambon (1891- 1897) ثم شارل جونار Jonnart (1903- 1913) ثم شارل ليتو Lutaud (1913- 1918). فهؤلاء الحكام الثلاثة سلكوا سياسة بدلت وجه الجزائر إلى أمد بعيد. وقد تميز كل واحد منهم بطابع خاص في حكمه، يطول بنا الحديث لو حاولنا وصفه.

لكن يهمنا من ذلك العهد نشاط عمر راسم الصحفي. الذي بدأ في عهد جونار وحكم عليه في عهد ليتو، أي عندما كان في العقد الثالث من عمره، وقد جاء في أحد المصادر أنه نشر مقالة في جريدة تونسية سنة 1907م.[2] وأحصى له هذا المصدر سبع مقالات نشرت في الجرائد التونسية قبل1911م، ومنها مقالة عنوانها «استعمار فلسطين». ولنذكر هنا أن قانون التجنيد الإجباري الذي أثر على النخبة قد صدر سنة 1912م أي عندما كان سنه حوالي 29 سنة، وقد كتب في جريدته (ذو الفقار) ضد هذا القانون الجائر.

عندما ظهر عمر راسم على مسرح الحياة لم تكن في الجزائر نخبة لها وزن سياسي وفكري (رغم وجود مثلها في تونس ومصر)، لأنه لم يكن فيها مدارس ذات شأن، ماعدا ثلاث مدارس إقليمية في (العاصمة، قسنطينة، تلمسان) تقليدية أنشئت لتخريج أعوان للقضاة الفرنسيين في الشؤون الإسلامية، وبعض المترجمين والمدرسين[3].

هذا على المستوى الرسمي أما على المستوى الشعبي فهناك عدد قليل من طلبة الزوايا المعزولة في عمق الريف لا يمكنهم التطلع إلى وظيفة إدارية أو الدخول في الأعمال الحرة في المدينة. ومثلهم أولئك الذين تخرجوا من بلاد عربية (المغرب، تونس، مصر...) فلم يكن لهؤلاء جميعا تأثير ثقافي متميز، باستثناء أشخاص يرجع قبولهم إلى اعتبارات سياسية مثل عبد القادر المجاوي (درس في القرويين) الذي يقال إن الأمير عبد القادر قد تدخل من أجله، ومثل محمد بن رحال (درس في زاوية) الذي اعترف به لقدرته أولا وربما لمكانة والده في خدمة الإدارة ثانيا.

ومع بداية القرن العشرين وجدنا نوعين من النخبة: نخبة تجنست بالجنسية الفرنسية[4] أي تخلت عن الأحكام الشرعية واتبعت القانون الفرنسي واستعملت اللسان الفرنسي في معاملاتها وأخلصت الولاء لفرنسا وثقافتها، رغم جذورها العربية الإسلامية، مثل: د. بلقاسم بن التهامي، ود. الطيب مرسلي، وعمر بوضربة، ونخبة أخرى بقيت محافضة على الأحوال الشخصية الإسلامية مدافعة على الهوية الوطنية، فهي عربية اللسان (وأحيانا كانت مزدوجة) مثل محمد ابن أبي شنب وعبد الحليم ابن سماية والمولود ابن الموهوب، وصحفيي جريدة المبشر، يضاف إليهم المجاوي ومحمد بن يوسف أطفيش.

ومن الملاحظ أن عمر راسم عاش[5] هذه الفترة بنشاط واندفاع متفائل، وربما عالج التأليف، مع كتابة المقالات، لقد كان ذلك قبل أن يصطدم بواقع اجتماعي مريض وبقبضة استعمارية متعسفة،

وقد قيل إنه ترجم لمجموعة من علماء الجزائر في مخطوط لم نطلع عليه، ولكن بعضهم[6] اطلع عليه واقتبس منه وسماه «رسالة». ومازلنا لم نعرف حجمه ولا العلماء الذين ترجم لهم، وإن كنا نعلم إن كلمة (العلماء) تعني أهل الثقافة العربية الإسلامية، وقد عرفنا أنه ترجم لحمدان خوجة ومحمد بن مصطفى المعروف بالكمال.

ومن القضايا التي شغلت قلمه في فترة شبابه قانون التجنيد الإجباري الذي أدى إلى هجرة الآلاف إلى المشرق، ويقال إنه قد زار مصر (حوالي سنة 1906) لغرض لا نعلمه، وربما كان تأثره بفكر الشيخ محمد عبده ونشاط الحزب الوطني المصري بزعامة مصطفى كامل له علاقة بهذه الزيارة، ونحن نعلم أن الأحداث في الشرق وفي تونس والمغرب كانت تجري بسرعة وإثارة، وما يهمنا هنا من تلك الأحداث زيارة الشيخ عبده للجزائر في سنة 1903 [7]. وبعدها بسنتين توفي الشيخ ولكن فكره الإصلاحي في الجزائر لم يمت معه، فقد كان له أنصار وخصوم في مصر بالذات ولاسيما الأزهر، وضمن الطبقة السياسية.

من نتائج الحرب العالمية الأولى إصابة عمر راسم بالإحباط، ودخول الجزائر مرحلة جديدة أطلق عليها البعض مرحلة «النهضة»، وإسكات صوت الأمير خالد بطريقة تعسفية، ثم تصاعد لهجة الاستعمار عشية الاحتفال المئوي بالاحتلال (1930)، وغيرها ممن الأحداث التي جرت سواء في الجزائر أو في البلدان المجاورة. وهكذا

كان على عمر راسم مراجعة تفاؤله السابق وموقفه من قيادات البلاد بل ممن رؤية مستقبل حركة التحرير الوطني نفسها.

حقيقة أن نخبة جديدة ظهرت بعد الحرب فيها تصنيفات لم تكن موجودة قبل الحرب، منها التيار اليساري والتيار اليميني والتيار الإصلاحي والتيار الثوري وغيرها، فالإصلاحي كان يمثله علماء تخرج أغلبهم من مدرسة ابن باديس بمعناها الواسع.

يضاف إلى هؤلاء إصلاحيون سياسيون من أمثال: د. ابن جلول وفرحات عباس، واليميني يقوده نخبة فيها: د. ابن التهامي وبلحاج ومحمد صوالح. يضاف إليهم «الجماعة المتواضعة»

أمثال: الزناتي والافسي وكسوس. أما اليساري فيمثله الثوريون العضويون في منظمة النجم ثم حزب الشعب، ويضاف إليهم أعضاء كانوا في الحزب الشيوعي مثل عمار أوزقان... وقد كان لكل تيار صحفه والناطقون باسمه وطريقة تعامل مع الإدارة الفرنسية.

فأين يقف عمر راسم من هذه التحولات الاجتماعية والثقافية؟ يبدو لنا أنه أصبح- كفنان- خارج السرب، فهو ليس من أطياف هذه النخبة، وكان له إحساس وطني مطعون، فهو ليس اندماجيا ولا حزبيا ولا راضيا عن القيادات الجديدة، لذلك انغمس في الفن من رسم وخط وموسيقى، ولكن الفن لا يجلب رزقا ولا يوفر حياة كريمة لصاحبه، إننا نكاد نجزم أنه لم يكن لعمر راسم مورد ثابت يعيش منه، كما أن صحته لم تكن على ما يرام، لذلك نجده ناقما على حاله وحتى على شعبه الذي كان في نظره يتحمل الإهانة

دون أن يتأوه أو يحطم قيوده، ونحن نستقي ذلك من روايات بعض المعاصرين له، أمثال: أحمد توفيق المدني ومحمد قنانش...

ولعل الحاجة المادية هي التي قادت عمر راسم إلى الانضمام إلى أسرة مجلة (هنا الجزائر) خلال الخمسينات، رغم أن هذه المجلة كانت تصدر عن الإذاعة الفرنسية. وعسى أن تكون له علاقة ودية مع الشاعر الطاهر البوشوشي (رئيس تحرير مجلة هنا الجزائر) وأن يكون ذلك هو سبب انضمامه إلى أسرة المجلة، وقد كان العمل في مجلة هنا الجزائر محل جدل بين نخبة ذلك العهد،ولاسيما بعد انطلاق الثورة، فعمر راسم توفي سنة 1959 وكان إلى آخر لحظة من كتاب المجلة ومن متحدثي المذياع، وقد تنوع إنتاجه في هذه الفترة فشمل تاريخ الموسيقى، وهو موضوع عزيز عليه إذ نجده كتب عن الموسيقى الأندلسية في دورية تونس(المباحث سنة 1945)، ولا ندري إن كانت له رسوم ولوحات وخطوط جديدة خلال الفترة الأخيرة من حياته.

أما كتاب (تراجم علماء الجزائر) فالظاهر أنه لم ينجزه، فكتاب بهذه الصفة لا يمكن إلا أن يتوسع زمانا ومكانا، لأن علماء الجزائر ليسوا هم علماء العاصمة فقط رغم أن الأسماء المشار إليها في الكتاب (حمدان خوجة، ومحمد بن مصطفى، عبد الحليم بن سماية...) كانوا من العاصمة، ولعله لم يبدأه بتاريخ الاحتلال.

عندما يؤلف الأوروبيون كتب التراجم يبحثون باهتمام عن وسائل العيش المتوفرة للمترجم له، فالإنسان لا يعيش بالروحانيات

وحدها، ذلك أن وسائل العيش هي التي تحدد في نظرهم ولاءاته وتحركاته وتشكل أفكاره وأحكامه، فالذي يعيش من رزقه غير الذي يعيش من منحة يقدمها له المانحون، والإنسان الذي يسكن في داره غير الذي يعطى مسكنا ولو كان قصرا منيفا، والذي يأكل من زرعه وضرعه غير الذي يقتات مما يبتاعه من الأسواق.

أما نحن فنكتفي عادة عندما نترجم لشخص بالحديث عن غناه وفقره،وعن تعلمه ورحلاته، وعن تأليفه ومواقفه، كأنه شخص مفصول عن الحياة المادية من حوله، أو كأنه مضمون العيش حيثما حل وارتحل، أو كأنه ملاك لا يظمأ ولا يضحي، فلا يهمنا ممن أمره مصدر عيشه ولا مدى أثر ذلك على تفاؤله أو تشاؤمه من الحياة ولا على أثره على آرائه وإنتاجه ومواقفه السياسية وتوجهاته الأدبية والفنية. بصراحة أنا لم أطلع على شيء من ذلك بالنسبة لصاحبنا، ومن كان يعرف شيئا من ذلك عنه فليفدنا مشكورا، إن اللوحات الفنية والقطع الموسيقية والتآليف الأدبية والأحاديث الإذاعية لا تجلب مالا ولا تضمن عيشا كريما لصاحبها.

إننا مع عمر راسم أمام إنسان لم يفرح بزمنه ولا بحرية وطنه. لقد بدأ حياته بعهد لويس تيرمان وأنهاه بعهد لاكوست، غادر هذا العالم وهو يائس بائس وليس بينه وبين الحرية سوى مسافة قصيرة، ومع ذلك فإننا نتساءل في نهاية المطاف: هل كان عمر راسم سيفرح بالحرية كما فرح بها الآخرون؟

هوامش :

1. ذكره الأستاذ محمد ناصر هكذا : علي بن سعيد بن محمد البجائي، 1884 ـ 1959 ولد في العاصمة وتوفي بها، تلقى تعليمه في الكتاتيب القرآنية، ثم تابع دراسته بطريقة عصامية بحيث لا نجده قد درس مثلا في المدرسة الثعالبية، وقد تعلم الفرنسية أيضا. أصدر مجلة الجزائر سنة 1908 ثم جريدة ذو الفقار سنة 1913، وكان يكتب باللغتين، انظر محمد ناصر : المقالة الصحفية، ج، 2، ص227.

2 ـ محمد الصالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983، ص839.

3 ـ في سنة 1913 نشر أندري سيرفييه Andre Servier الطبعة الثالثة من كتابه : الوطنية في مصر وتونس والجزائر، قسنطينة، بوييه، قارن فيه بين الوطنيات الثلاث، وكان في وقته كتابا مثيرا للجدل..

4 ـ وهم الذين تسميهم العامة المطورنيين.

5 ـ ذكر له الجابري عدة مقالات نشرها في صحف تونسية، فما بالك بالصحف الجزائرية، ومنها مقالة عن الموسيقى الأندلسية نشرها في مجلة المباحث التونسية سنة 1945. انظر الجابري، مرجع سابق، ص. 389.

6 ـ محمد علي دبوز : نهضة الجزائر الحديثة، ط1، الجزء الأول، 1965 ص131 ـ 132.

7 ـ عن هذه الزيارة انظر كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج5.